واقع الكتاب العربي

بقلم بهيج عثمان

لا تضمني مكتبة من مكتبات الوراقين في هذه الايام ، الا واشعر انني في معرض للرسم الملون ، لما في الواجهات وعلى الرفوف من غلافات ملونة وعناوين مغرية .

اما الغلافات فألوان صارخة من حمراء وخضراء وزرقاء ، او صور برّاقة تدفع الناظر دفعاً الى التحديق .

واما العناوين فقد اصبحت للكتاب زياً من الازياء له طريقته وبدعته ، وله فنه واناقته ، فاذا كان الكتاب مجموعة من الشعر فليس يكفي فيه ان تقول ديوان فلان او شعر ذلك الشاعر ، بل لا بد من ظلال واضواء، وليالٍ ونجوم ، وآفاق واجواء، وضباب وسحاب، وطيب وعبير، وجلنار واقحوان، وما يمكن ان يتألف من هذه الكلمات من عناوين انيقة جذابة. وقد يهمل الشاعر هذه العناوين البعيدة ليقترب الى حواء وسمراء ورندلى ، وقد يلح في القرب الى ان يبلغ الخدود والنهود...

واذا كان الكتاب قصة او مجموعة قصص ، فان التأنق في اختيار العنوان ينتقل الى جو آخر . فلم تعد القصة العاطفية هي التي تستحوذ على اقلام القصاصين ، ولكن الحياة الاجتماعية التي يعيشها الناس في الشرق العربي جرفت كتاب القصة ، فاذا هم يغمسون اقلامهم في واقع هذه الحياة ، بل في الجانب الانساني من هذا الواقع . وهكذا يستوحي القصاص عنوانه من المعذبين والكادحين ،والثورة والدماء،والجوع الذي لا يرحم،والكسيح والمنبوذ،والكفر والفقر،والام البائسة والاخوات الحزينات...

والى زمن قريب ، كانت قصص العذارى ، وحياة قلب ، وكلهن نساء ونحوها ، ذات انعكاس خاص في نفس القارىء .

وكان المتوقع ان تفرض موضوعات البحث الرصينة شيئاً من الوقار العلمي فيأتي العنوان عادياً طبيعياً ،غير ان الباحث في هذه الايام لا يقل عن صاحب الكتاب «الشعبي »تأنقاً في صوغ عنوانه وتركيب كلماته ،لا ليوافق العنوان سير البحث ونتائجه ،ولكن ليلائم هوى القارىء وعواطفه ، أو ليحرك فيه رغبة الاطلاع.

هذه الغلافات الملونة المزخرفة ، والعناوين البراقة الجذابة لا تحمل الا كتباً ذات احجام صغيرة ، كأن القارىء لم يعد يحتمل البقاء مع الكتاب الواحد زمناً طويلاً. فالكتاب العربي في هذه السنوات الاخيرة كتاب جيب قبل كل شيء او مقال طويل ، وقد ادرك هذه البدعة ناشرو التراث الادبي القديم فنشروا كتاب الاغاني في « قطوف » صغيرة الحجم ، ونثروا « العقد الفريد» جواهر ويواقيت ليتقبلها القارىء الحديث قبولاً حسناً .

هذا هو الكتاب العربي الحديث في شكله المادي وهيئته الخارجية . وقد اجتاز قبل ان يتخذ هذا الشكل حياة طويلة ، بدأت بالكاتب وانتهت بالقارىء ، وبينهما وسيط هو الناشر .

واذا كان الكاتب يعنيه امر القارىء الذي يوجه اليه الكلام، فسيرى نفسه قبل ان يمسك القلم مضطراً الى ان يتساءل : اترجم ام اؤلف؟ اصرح ام الوّح؟ ارضي ام اغضب؟ ابسّط ام اعقد؟ اسئلة لا بد منها لكل من يكتب كتاباً يريد من ورائه نشر فكرة ، او أداء رسالة بين القارئين ...

ولعل التساؤل بين الترجمة والتأليف أسهل انواع التساؤل وأيسرها حلًا ، فقد تكون الترجمة اكثر اغراء في موضوعات معينة ، ولكن التأليف نوع من الاصالة وتعبير عن الشخصية .

ولكن هل من الخير ان يصرح فيما يكتب ام يكتفي بأن يلمح تلميحاً ؟ هل يسمي الاشياء بأسمائها، ام يحوم حولها ويدور؟ هل يشخص الداء بدقة وصدق وإمعان ، فيعيد الامراض الى اسبابها ، ثم يصف الدواء الناجع فيدل القارىء عليه ، مهما اثارت هذه الصراحة في التشخيص والعلاج من نقمة الجامدين وأتباعهم،ومهما كلفت الكتاب لدى صدوره من منع ومصادرة

لقد تحرر الكاتب في الاشهر الاخيرة من قيود كثيرة تتصل بحريته هذه .. ولكنه لا يزال في نواح معينة من شؤون الحياة والفكر مضطراً الى ان يصرّح بالرأي المقبول لديه ولدى الذين يضيقون عليه القول ، ويكتفي بالجرعة أثر الجرعة يصبها هينة مستساغة ، مبثوثة في اثناء كلامه .

ولكن هؤلاء «المراقبين» ليسوا كل شيء في تفكير المؤلف الذي يكتب في اوضاع مجتمعنا العربي او ما يتصل بها ، فالقارىء العربي اليوم شديد الحساسية ، قوي حاسة الشم ، يشم في الكتاب رائحته من عنوانه او اسم مؤلفه فاذا به يقبل عليه بحماسة بالغة او ينكره اشد الانكار. من اجل ذلك يفكر المؤلف طويلًا في هذه الايام في رضى القارىء وغضبه .

ومن أسباب الرواج التي تدعو المؤلف الى التفكير ، قبل

ان يخط قلمه موضوعات الكتاب ، طريقة العرض ونوع المعالجة فقد كان يخيل الى الناس أن الكتاب المبسط الذي يعرض للقضايا عرضاً سهلاً قريب التناول ، هو الكتاب الذي يرغب فيه القراء ويؤثرونه ، ولكن ظهور عدد من الكتب التي سبرت الغور أكثر مما قاست السطح ، والتي امتدت عمقاً حتى بلغت الجذور أكثر مما ذهبت عرضاً ، ان ظهور هذه الكتب بدد ظن القائلين برغبة القراء في السهل القريب المبسط دائماً . . . وهكذا لم يعد المؤلف مضطراً الى تناول بحثه تناولاً سريعاً خفيفاً ، فللبحث العميق الذي اكتملت اسباب دراسته ، وقوي تغلغل المؤلف فيه ، انصار من القراء يتزايد عددهم يوماً بعد يوم في مختلف انحاء العالم العربي .

اذا انتهى المؤلف من وضع كتابه ، بعد ان لاءم بين هذه التيارات المختلفة التي تضمن لكتابه السيرورة ، حمله الى الناشر . وهنا يجتاز المؤلف مأزقاً ضيقاً ويجابه واقعاً مؤلماً ؛ ذلك أن عدد الناشرين في العالم العربي محدود بالنسبة الى ما يمكن ان تخرجه عقول الموهوبين من أبنائه ، فما اكثر الكتب الصالحة وما أقل الناشرين الذين يمكنهم أن ينهضوا بعبء نشرها . واذا عرفت أن احدى دور النشر في بيروت يقدم اليها في العام الواحد نحو من مئتي كتاب ، ولكنها لا تنشر الا عشرين فقط أدركت نسبة ما ينشر الى ما يطوى . . .

ويقلب الناشر الكتاب المخطوط ، المحظوظ ، بين يديه . . ولما كان «الناقد» شخصاً لم يعرفه الكتاب العربي بعد فان الناشر يرى نفسه مضطراً إلى ان يطرح هذا السؤال : هل يقدم الكتاب نفسه تقديماً حسناً الى القارىء ؟ هل يحمل عنواناً داعياً ؟ هل لاسم مؤلفه بريق خاص ؟ هل يثير موضوعه عاطفة من العواطف ؟ والناشر معذور في تقدير الكتاب على هذا النحو ، ما دامت المجلات العربية لا تقوم بواجبها نحو الكتاب فتدل قراءها على الجيد منه ومواضع الجودة فيه .

وينشر الكتاب ، ويحتل مكانه من رفوف المكتبات ، ويقبل عليه القارىء أو لا يقبل ، تبعاً لهذه العوامل التي سبق أن أدرك بعضها كل من المؤلف والناشر .

وقد كتب عدد من الكتاب ، متحدثين عن أزمة الكتاب العربي ، ولكن الواقع الذي لاريب فيه ان الكتاب المطبوع منذ حدثت الانقلابات السياسية الأخيرة في العالم العربي ، يمر في مرحلة تعتبر من خير المراحل التي شهدها الكتاب اقبالاً ورواجاً وتداولاً .

ولكن الواقع ايضاً ان هذا الرواج لا يمتد فيشمل جميع ألوان الكتب وموضوعاتها . فاذا كان ثمت ازمة فهي أزمة تتصل بالكتاب الذي يتناول الأدب الخالص ، الأدب الذي يشغله طيف الحبيب ، ويسحره ضوء القمر وصفاء الليل عن لقمة الخبز وعرق الجبين وآلام العيش . وهذه ازمة تنبيء بوجود يقظة جديدة تنبه القارىء العربي وتدفعه الى تفكير جديد يحسن به واقعه اليومي ، وتدفعه الى أن يشارك اخوانه آلامهم ومتاعبهم ، قبل ان يعيش على الخيال المجنح والاحلام المخدرة .

ويقف الرواج ايضاً دون الكتاب التي تفوح منه رائحة تأييد نحو جهة من الجهات التي يكرهها المواطن العربي ، ذلك أنه يصعب على القارىء العربي ان يقرأ كتاباً ضد عواطفه ، ولو كان الاطلاع عليه لا يخلو من فائدة .

وهناك تطور ظاهر في موقف القارىء من الكتاب العربي ، فلم تعد الأسماء الكبيرة ذات الماضي الضخم تغريه كما كانت تغريه في السابق . فكم من الكتب التي سارت في العام الماضي أي مسير ، وأعيد طبعها مرة ومرة ، وهي لا تحمل إلا أسماء مؤلفين جدد ، ذلك لأن موضوعها هام قد أحسنت معالجته .

وبالرغم من التحسن الملموس في وضع الكتاب العربي ، والتزايد المطرد في عدد قرائه ، فان نسبة رواج الكتاب إلى عدد المثقفين العرب لا تزال نسبة ضئيلة ، وخاصة إذا قارنا ذلك بوضع الكتاب في البلاد الأوربية او الأميركية . ولا شك ان المسؤول عن هذا الضعف في الاقبال هو المدرسة التي لا تعلم متخرجيها عادة القراءة الحرة التي تمد القارىء بألوان جديدة من المعرفة .

أما الأزمة التي تضايق الكتاب العربي حقاً ، فهي تلك الأزمة التي تتصل بحرية الكتاب ، وحرية تداوله . فالكتاب لا يصل الى قارئه في هذه الأيام إلا بعد ان يجتاز عقبات وسدوداً من مراقبة متعنتة إلى قيود جمركية شديدة . ومن اليسير على الذين يريدون للثقافة خيراً ان يزيلوها حين يشاؤون .

إذا كان واقع الكتاب ، دليلا على واقع الثقافة ، فان رواج الكتاب الذي يعالج قضايا الحياة الحرة ، والرخاء الاجتماعي والسلام الانساني ، معناه ان الثقافة التي تتناول خير المجموع في العالم العربي بدأت تلقى تجاوباً واهتماماً من المثقفين ، من أجل بناء مستقبل وارف الظلال في أمنه ورخائه وازدهاره وإنسانيته .

بهيج عثمان